قضايا

تبنّى بن غوريون موقفاً يعتبر فيه أن «الدولة اليهودية داخل أرض إسرائيل التوراتية ليست هدفاً نهائياً، وأن هذه الدولة اليهودية ستشمل يوماً، شرق الأردن وجنوب لبنان». واعتبر موقف بن غوريون هذا يعكس إصراراً صهيونياً سيعود ويبرز بقوة إبّان أول حرب عربية إسرائيلية في 1948

المستحيل في الأمس ممكن اليوم [2]

الأطماع الصهيونية في جنوب لبنان

نبيل الخوري

دخان يتصاعد من منصة صواريخ لحزب الله في مرجعيون تقصف مستوطنة المطلة، 31/ 10/ 2024 (فرانس برس)

توقفنا في الجزء الأول من هذه المطالعة حول انقسام اللبنانيين بين من يتمسك بسلاح المقاومة سبيلاً لمواجهة الأطماع التاريخية الصهيونية في لبنان، ومن يرى أن هذا السلاح (وقبله سلاح المقاومة الفلسطينية) سبب في توريط لبنان في حروب إسرائيلية على لبنان. وتوقفنا عند مذكرة صهيونية تأمل في أن تبدأ حدود فلسطين من الشمال عند البحر الأبيض المتوسط «مجاورة لجنوب صيدا»، وقلنا إن التحكم بالثروة المائية في لبنان يمثل مسألةً حيويةً وفق المنظور الصهيوني للكيان قيد التأسيس في حينه. نستكمل الحديث هنا عن دوافع الأيديولوجيا والأمن، ومخططات إسرائيلية ترى في نهر الليطاني حدوداً طبيعية لإسرائيل يمكن الدفاع عنها. تلك المخطّطات التي فشلت في الأمس وتستعاد اليوم في سياق النقاش حول سلاح المقاومة.

دوافع أيديولوجية.. وأمنية

بالإضافة إلى الدوافع المائية والاقتصادية، التي سيشدّد عليها وايزمان، في العام 1920، في مراسلاته مع اللورد رئيس المجلس البريطاني آرثر جيمس بلفور (كان وزيراً للخارجية حين أصدر وعده بقيام وطن قومي لليهود في فلسطين)، ثمة أيضاً دوافع أيديولوجية وراء محاولة ضمّ جنوب لبنان إلى «الدولة اليهودية». من منطلق «الأسبقية» في الأرض، التي يتم طرحها لتبرير مقولة «الملكية التاريخية» لليهود في فلسطين، يستند الصهاينة إلى «الكتاب المقدس» للادعاء بأن «أرض إسرائيل» تشمل، بين ما تشمل، الأراضي التي انتشرت فيها قبيلة نفتالي اليهودية على ضفتي نهر الليطاني، وتلك التي عاشت فيها قبيلة أشير اليهودية في منطقة صيدا، التي كانت تضمّ أقليةً يهودية في التاريخ المعاصر، كما يشير بيرونيه. لم تقتصر الدوافع الصهيونية على الأبعاد المادية والأيديولوجية. بل كانت هناك أيضاً دوافع أمنية تتعلق بحماية المستوطنات في الجليل الأعلى، خصوصاً بعد معركة تل - حاي، في مارس/ آذار 1920، كما يذكر هوف. حينذاك، أثناء الحرب بين الاستقلاليين السوريين وجيش الانتداب الفرنسي، وقع صدام دموي بين مقاتلين عرب ومستوطنين يهود، استخدمته الحركة الصهيونية ذريعة للمطالبة بتوسيع الحدود الجغرافية لفلسطين حتى يكون للدولة اليهودية مدى جغرافي كافٍ لضمان أمن المستوطنات.

مستوطنات في جنوب لبنان؟

بعد إعلان دولة لبنان الكبير، بحدوده التي فرضها الفرنسيون من النهر الكبير شمالاً وحتى رأس الناقورة جنوباً، في سبتمبر 1920، اعتبر الصهاينة أن هذه الحدود تمثل «كارثة». لكن عبثاً حاول وايزمان إقناع الجنرال الفرنسي هنري غورو (معلن تأسيس دولة لبنان الكبير) «بأهمية مياه نهر الليطاني بالنسبة لفلسطين»، كما يروي وايزمان في مذكراته. ولاحقاً، فشلت محاولة التواصل مع سلطات الانتداب الفرنسي من أجل الحصول على إذن لتشييد مستوطنات صهيونية في جنوب لبنان، في عشرينيات القرن العشرين. الفرنسيون كانوا يدركون أن امتداد المشروع الاستيطاني، حتى هذه المنطقة، سيشكل حجّةً في المستقبل لمطالبة الحركة الصهيونية بتعديل الحدود وصولاً إلى صور وصيدا، بحسب ما يورد هوف في رسالته الجامعية. الموقف الفرنسي قطع الطريق على المساعي الصهيونية كلها لوضع موطئ قدم في لبنان. لكن الأطماع في أرضه لم تنته.

1936: الإصرار

أحداث العام 1936 في فلسطين، شكّلت فرصةً لإعادة التعبير عن الرغبة في حيازة جزء من لبنان. على وقع تنامي الهجرة اليهودية إلى فلسطين، انفجرت ثورة فلسطينية في العام 1936 ضد الانتداب البريطاني، الذي كان يعمل بشكل ممنهج لتعبيد الطريق أمام إقامة دولة لليهود مجاورة لدولة أخرى للعرب. وشكّلت بريطانيا «اللجنة الملكية لفلسطين»، برئاسة اللورد روبرت بيل، للتحقيق بشأن الوضع بعد ثورة 1936. في يوليو/ تموز 1937، أصدرت «لجنة بيل» توصية بتقسيم فلسطين بين دولتين يهودية وعربية. واقترحت اللجنة مشروعاً لنقل السكان، وبالتحديد نقل 200 ألف فلسطيني من مناطق ستُخصص للدولة اليهودية مقابل نقل «أكثر من 1000 يهودي فقط» من أراضي الدولة العربية. رداً على توصيات «لجنة بيل»، انقسمت قيادة الحركة الصهيونية بين مؤيّد ومعارض. أما بن غوريون فكان من بين المؤيّدين بحذر. لكنه كان يتبنى موقفاً يعتبر فيه أن «الدولة اليهودية داخل أرض إسرائيل التوراتية ليست هدفاً نهائياً، وأن هذه الدولة اليهودية ستشمل في يوم من الأيام، شرق الأردن وجنوب لبنان»، بحسب ما ورد في كتاب من إعداد الأكاديميين إيران كابلان، ديريك بنسلار، وديفيد سوركين عن «أصول إسرائيل» (2011). موقف بن غوريون هذا يعكس إصراراً صهيونياً سيعود ويبرز بقوة إبّان أول حرب عربية -إسرائيلية في العام 1948.

كاد بن غوريون أن يحقّق «الحلم»

مع اندلاع الحرب، منتصف شهر مايو/ أيار، «تحدث بن غوريون عن غزو جنوب لبنان حتى الليطاني، ما يفترض غزو الجليل الأوسط»، الذي كان جزءاً من أراضي الدولة العربية في فلسطين، بموجب قرار التقسيم 181، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في 29 نوفمبر/تشرين الثاني 1947. هذا ما يكشفه المؤرخ بيني موريس (Benny Morris) في كتابه عن تاريخ تلك الحرب (2008). وفي ما يتعلق بالجليل الأوسط، يُؤكد موريس أن «بن غوريون كان يأمل أن يقع هذا الجيب في أيدي الإسرائيليين وأن يخلو من العرب»، كما قال أمام مجلس الوزراء في 26 من أيلول (1948). بالفعل، سقط الجليل الأوسط وهجَّر الفلسطينيين منه، وغزت القوات الإسرائيلية جنوب لبنان منتصف ليل 30-31 أكتوبر/تشرين الأول، واحتلت عدداً من القرى وصولاً إلى نهر الليطاني.

> بعد إعلان الفرنسيين «لبنان الكبير» (1920)، حاول وايزمان إقناع الجنرال الفرنسي هنري غورو بأهمّية مياه الليطاني بالنسبة لفلسطين

> تحدّث بن غوريون عن مشروع إقامة دولة مسيحية، معتبراً أن تحقيقه غير ممكن من دون تضييق حدود لبنان

ولم تنسحب من معظم الأراضي اللبنانية (باستثناء القرى السبع) سوى في مارس/ آذار 1949، بعد توقيع اتفاقية الهدنة بين لبنان وإسرائيل، والتي تنصّ على انسحاب إسرائيل إلى «حدودها الدولية»، بحسب موريس. وإذ يشير المؤرخ إلى أنها «كانت المرة الأولى التي يعبر فيها الإسرائيليون حدوداً دولية معترفا بها ويغزون دولة عربية ذات سيادة»، أي دولةٍ عضواً في منظمة الأمم المتحدة، فهو يؤكد أيضاً أن الغزو تمّ بقرار من بن غوريون، وأن الإسرائيليين كانوا «مدفوعين باعتبار أن نهر الليطاني يوفر حدوداً طبيعية لإسرائيل يمكن الدفاع عنها».

تقاسم المياه بدلاً من ضمّ الأرض

بيد أن إسرائيل لم تتمكن من فرض الاحتلال أمراً واقعاً مستداماً آنذاك. حاول القادة الصهاينة، مقايضة الانسحاب العسكري فقط، بمكاسب سياسية ومادية تتمثل بتوقيع اتفاقية سلام وتقاسم الثروة المائية التي يوفرها نهر الليطاني مع دولة لبنان. ذلك أنه خلال مفاوضات الهدنة في مدينة لوزان السويسرية، «اقترحت تل أبيب تحويل الحدود الفاصلة بين البلدين بموجب معاهدة سلام إلى حدود رسمية معترف بها دولياً»، كما ورد في الرسالة الجامعية لفريدريك هوف. أي كانت «مستعدة للتخلي عن المطالبة الصهيونية التقليدية بجنوب لبنان في مقابل إعلان بسيط للسلام، والذي من شأنه أن يعني نهجاً تعاونياً ثنائياً في ما يتعلق باستغلال موارد المياه في جنوب لبنان»، بحسب المؤلف نفسه. لكن لبنان تقدم باقتراحين مضادين: «الأول، عودة اللاجئين الفلسطينيين؛ والثاني، تسليم لبنان الجزء من الجليل الغربي الذي خصصته الأمم المتحدة في العام 1947 للقطاع العربي من فلسطين المقسمة»، كما يذكر هوف. لكن إسرائيل «رفضت الاقتراح اللبناني، الذي كان من شأنه أن يوسع جنوب لبنان ليشمل عكا على الساحل والناصرة في الداخل». هكذا، لم تتمكن إسرائيل من استثمار انتصارها العسكري في لبنان في العام 1948، بانتزاع أيّ مكاسب جغرافية وسياسية ومادية. لكن «حلم السيطرة على جنوب لبنان»، سيظل يراود القادة الصهاينة.

محاولة اجتياح لبنان منتصف الخمسينيّات

بعد بضع سنوات من حرب 1948، وعلى الرغم من اتفاقية الهدنة، حاول بعض هؤلاء القادة إقناع رئيس الوزراء الإسرائيلي خلال العامين 1954 و1955، موشيه شاريت، باجتياح لبنان. هذا ما يكشفه شاريت في «مذكراته» الصادرة في العام 1978، التي يعرض نجله، ياكوف شاريت مقتطفات منها، في مقالة له في مجلة لوموند ديبلوماتيك الفرنسية (1983). يروي موشيه شاريت أنه أوقف مخطّطاً وضعه سلفه (1948-1954) وخلفه (1955-1963) ديفيد بن غوريون، ووزير الدفاع آنذاك، بنحاس لافون، ورئيس فرع العمليات في الجيش آنذاك، موشيه دايان، لتغيير الوضع في لبنان، بشكل يؤدي بحكم الواقع إلى سيطرة إسرائيل على الجنوب. في أحد الاجتماعات وفي مراسلات ثنائية، لا يتردد بن غوريون في دعوة شاريت إلى التحرّك في هذا الاتجاه، وتوظيف الإمكانات (المالية والبشرية) كلها من أجل تحقيق الهدف، في رسالة مؤرخة في 27 فبراير/شباط 1954. ويتحدث بن غوريون عن مشروع إقامة دولة مسيحية، معتبراً أن تحقيقه «غير ممكن من دون تضييق حدود لبنان». ويرى بن غوريون في الرسالة نفسها أن «توسيع حدود لبنان كان الخطأ الأكبر الذي ارتكبته فرنسا» عندما أسست دولة لبنان الكبير في العام 1920، رافضةً بشكل قاطع جعل الجنوب جزءاً من حدود فلسطين، لتكون لاحقاً حدود الكيان الصهيوني.

هذه المحاولات كلها من أجل تجسيد الأطماع الصهيونية في جنوب لبنان ومياهه، جرت في الفترة التي كان فيها لبنان دولةٍ سيّدةٍ، تبسط سلطتها في كامل أرضها. لكن هذه المحاولات لم يُكتب لها النجاح في المحصلة. وفشلها يعزز حجة أولئك الذين يقولون في لبنان، إن الدبلوماسية قادرة على حماية جنوب لبنان من الأطماع الصهيونية التي لا ينكرها أحد. لاحقاً، في حرب 1967، احتلت مزارع شبعا في سياق احتلالها للجولان السوري، وهي ترفض الانسحاب منها. لكن عندما تحوّل لبنان إلى ساحة لمنظمة التحرير الفلسطينية ضد إسرائيل، اجتاحت الأخيرة لبنان مرّتين، الأولى في العام 1978، والثانية في العام 1982. واستمرّ احتلالها لجنوب لبنان والبقاع الغربي حتى العام 2000. صحيح أن حزب الله ساهم في إنجاز عملية التحرير، وأن حرب الاستنزاف جعلت إسرائيل عاجزةً عن تحويل احتلالها إلى أمر واقع، أي إلى ضمّ جنوب لبنان كما فعلت في الجولان في العام 1981. لكن الخطأ الذي ارتكبه حزب الله، ومن خلفه سورية وإيران، المتمثل في الاحتفاظ بسلاحه بعد التحرير، وظّفته إسرائيل لصالحها من خلال إعداد العدّة للانقضاض على حزب الله في الفرصة التي تراها سانحة، على غرار ما يحصل في هذه الحرب التي يتكبّد فيها حزب الله خسائر هائلة. فهل ما استحال تحقيقه من أطماع صهيونية في جنوب لبنان، على مدى 100 عام، سيكون مرجّحاً اليوم؟

(كاتب وأستاذ في الجامعة اللبنانية)

سلاح حزب الله

محاولات تجسيد الأطماع الصهيونية في جنوب لبنان جرت في فترة كان فيها لبنان دولةً تبسط سلطتها على كامل أرضها. وفشلها يعزّز حجة أولئك الذين يقولون في لبنان إن الدبلوماسية قادرة على حماية جنوب لبنان من الأطماع الصهيونية. في حرب 1967، احتلت إسرائيل مزارع شبعا، وهي ترفض الانسحاب منها. لكن عندما تحوّل لبنان ساحةً لمنظّمة التحرير الفلسطينية، اجتاحت إسرائيل لبنان مرّتين (1978 و1982). واستمرّ احتلالها لجنوب لبنان والبقاع الغربي حتى العام 2000. صحيح أن حزب الله ساهم في التحرير، لكنّ خطأه تمثّل في الاحتفاظ بسلاحه بعده، فوظّفت إسرائيل سلاحه لصالحها من خلال إعداد العدّة للانقضاض على الحزب في الفرصة التي تراها سانحة.